"قَالُوا بَلَى"

سؤال: ما معنى الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٧٢).

الجواب: في هذه المسألة سؤالان:

١- مَن المسؤول، وكيف طُرح عليه السؤال؟

٢- متى طُرِح هذا السؤال؟

ثمة آراء يمكن عرضها بين يدي السؤال الأول:

١- إن هذا يعني تَلقِّي الإنسانِ أمرَ الله "كُنْ" ولم يكُ شيئًا، وامتثاله لهذا الأمر. فمن هذه الزاوية يُعَدّ هذا الميثاق ميثاقًا تكوينيًّا لأنَّ فيه طلبًا واستجابة.

٢- لما كان الإنسان محض جُزَيْئات في عالم الذرّ وما وراءه ألقى ربّ العالمين -الذي ربّى كل شيء وساقه نحو الكمال- الرغبةَ في هذه الجزيئات أن تكون بشرًا، وأخذ عليها العهد والميثاق بأن تتجشم ما لا تطيقه أية ذرّة منها من حمل أعباء أثقل من جبل قاف، وذلك باستجابتها لطلب الله في الوجود.

يبدو أن ما جرى على هاتين الصورتين من "سؤال وجواب" أو "طلب واستجابة" لم يكن قولًا أو صراحةً، فبعض المفسرين يرى أن هذا الميثاق جرى على سبيل الاستعارة التمثيلية؛ إذ يبدو أن العرض والقبول أو الطلب والاستجابة في هاتين الصورتين لم يكن قولًا أو صراحةً،

ومعنى هذا: كأنّه قيل كذا، وأجيب بكذا، فعُدَّ هذا عقدًا تتوافر فيه القيمة القانونية، وإلا فهو ليس بالعقد الذي يتم بالإقرار والمكاتبة.

الحق أن لله تعالى آلافًا من أنواع الخطاب والجواب، وتفسير المسألة دون اعتبار لهذه الأنواع لا يخلو من التكلف، وسنَعرِض لهذا الأمر في مكانه.

٣- هذا العقد بما فيه من إشهاد وشهادة ما أبرم إلا ليعرف الإنسان نفسه، بل ليدرك أنه هو وليس شيئًا سواه، إنه يعني معرفته لنفسه، وتمثّله حقيقة "**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**"(١٢)، ومشاهدتَه مرآةَ ماهيته، وشهادتَه على الحقائق المتنوعة التي تنعكس على شعوره بهذه الطريقة، ثم إعلانَه كل ما شاهده.

ولكن هذا الإيجاب والقبول أو الطلب والاستجابة أو السماع والإعلام ليس صريحًا ولا مما يتأتى إدراكه بالحس على الفور، ولعلّه مما لا يُدرك إلا بالتنبيه المستمرّ، ومن هذه النقطة تمخضت أهمية تكرار الإرشاد أيضًا.

وإنّما جُعِلَت النفس أو الأنانية المودعة في الإنسان ليعرف بها خالقه ﷻ ويقرّ بوجوده تعالى. حقًّا الغاية من خلق الإنسان ليست شيئًا سوى هذه المعرفة وهذا الإقرار، فوجود الإنسان فيه دلالة على وجود الله، وفي صفاته دلالة على صفات الله، كما يدلّ قصور الإنسان ونقصه على كمال الله، وافتقاره على غنى الله، وعجزه وفقره على قدرة الله وإحسانه سبحانه؛ وتلك هي أولى هبة وإحسان من الله تعالى للإنسان، أما ما تقتضيه هذه الهبة والإحسان فهو معرفته تعالى وإدراكه، وهما يعنيان الإعلان عن الإقرار بالخالق العظيم الذي يشهد الإنسان وجودَه في كل موجود

(١٢) انظر: العجلوني: كشف الخفاء، ٣١٢/٢.

ونُـورَه في كل ضياء، وهذا معنى سـؤال "ألسـتُ بربكـم" وجواب "بلى"، وكأن هـذا العهـد إيجـاب وقبول تجلَّى في إدراك معنى ما سـطرته القدرة والإرادة في ذاك الكتاب العظيم، ودرْكِ ما بين سطور الحوادث من أسرار.

٤- لا ينبغـي أن نفكـر ولا نحكـم على هذا العهد وما فيه من سـؤال وجـواب بمقاييسـنا المادية، فالحق ﷻ يُلقي أوامـره على مخلوقاته كافّة، كلّ حسـب ماهيته، ويسـمع ويجيب ما ينبعث منها من أصوات وأصداء، ويؤتيها سُؤْلها.

وإذا ذهبنـا مذهـب علمـاء الكلام فلنـا أن نقول: كما يسـمع الله قول الناس، الذين يعبّرون عن مراميهم بألسـنة شـتى ولهجات متعددة؛ كذلك يُنزِل عليهم أوامره بألسـنة ولهجات متباينـة، ويبيّن لهم الحقائق ويعرّفهم بماهية الإنسان والكون، ويأخذ عليهم العهد والميثاق بما يدخل من القول والبيـان فـي جملة "الـكلام اللفظي"؛ ولله ﷿ كلام آخر سـوى ذلك، وهو يعـدّ مظهـرًا وتجلّيًا آخر لكلامه النفسـي، يبـدأ بما يُلهمـه الله للحيوانات وينتهي بخطابه للملائكة.

ودائـرة متعلَّقـات هـذا النوع من الكلام واسـعة، مبدؤها مـا يرِد على قلوب البشر من إلهامات، ومنتهاها عالم الملائكة؛ ولا يمكن لدائرةٍ سماعُ وإدراكُ أيِّ كلامٍ أو تبيانٍ أو رسالةٍ تتعلق بدائرة أخرى؛ فكل دائرة تختلف في ماهية "الاستقبال والإرسال" عن غيرها.

ومـن الخطـأ الجسـيم أن ندّعي أن بإمكاننا سـماع كل شـيء، واليوم أدركْنا أننا لا نسـتطيع سـماع سـوى ١/١٬٠٠٠٬٠٠٠ مـن الأصوات مما يمكـن سـماعه، كما لا نسـتطيع أن نرى إلا هذا القدر ممـا يمكن رؤيته، فلا قدْر ألبتة لِما نسـمعه ونراه إزاء ما لا نسـمعه ولا نراه؛ فيتعذر علينا إذًا

أن نتبين بطاقاتنا المحدودة خطابَ الله للذرات وأوامرَه للأنظمة وتركيباتها وتحليلاتها، لأن هذه كلها تجري في أبعاد أخرى سامية.

إن الله يأخذ في عالم الذر وفي بطون الأمهات وفي مرحلة الطفولة ميثاقه على الذرات والجزيئات والخلايا، لكنا لا نقدر أن نتبين هذا واضحًا بطاقاتنا المحدودة ألبتة، لا سيما إن كان هذا الميثاق بين الله وبين روح الإنسان أو الوجدان الذي هو آلية في الروح.

إن روح الإنسان كائن مستقل، ووضوح هذه المسألة مما لا مراء فيه اليوم، فعِلمُ النفس الغيبي (*Parapsychology*) الذي يحيط بفروعه المتنوعة دنيا العلم كلَّها لفَتَ أنظار الناس إلى الروح بموجوديتها ووظائفها وأحلامها وأمانيّها وآمالها، فما من محفل علمي أو كواليس فكرية إلا وهذه المسألة مثار حديثهم، ولما كنّا قد بحثنا مسألة الروح في موضع آخر مستقلًّا، فسنعرض الآن لما يتعلق بموضوعنا:

إن وجود الروح قبل جسم الإنسان، وماهيتَها غير مقيدة -من ناحية- بحدود الزمن؛ فإن وقع الإيجاب والقبول في الميثاق معها، فلا طاقة لنا باستيعاب هذا الأمر ألبتة، ففهمُنا قاصر وكذا البيان؛ فأسلوب الروح وهي تتحدث ربما يشبه ما يجري في أحلام الإنسان من الخطاب، بل إنّ الروح كما في التخاطر تتواصل وتتفاهم دون حاجة إلى ذبذبات الصوت.

وإنّ مسألة كهذه في وزنها تحظى باهتمام كبير حتى في مجتمع ماديّ كالاتحاد السوفيتي، وهذا أمرٌ ذو مغزًى عميق، فمعناه أنه اعترِف بأن للروح لغةً خاصّة في الكلام؛ وسيُسجَّل هذا الكلام ويُحفظ في شرائط غير التي نعرفها، فإذا ما آن الأوان ظهر ذلك بأسلوب خطابٍ خاص ولغة خاصة به، وتجلى بتداعيات خاصة به.

هكذا استُدعيت الأرواح في مقام "ألستُ" ليَعهد إليها الرب الجليل ﷻ، فرأوا كل شيء عِيانًا بَيانًا، لأنه لم يكن حينذاك حائل الجسمانية، رأوا وأبرموا العقد بقولهم "بلى"؛ لكن الذين أغفلوا مبحث الضمير في كتاب الروح -وهم اليوم كثير- لم يقفوا على مثل هذا العقد والميثاق، ولا سبيل لهم للوقوف عليه، إذ إنهم لم يدققوا النظر في هذا العالم ولم يبحثوا فيه؛ والحقّ أن الضمير هو الكتاب الصامت الذي أصغى إليه "بِرجسون (*Bergson*)" مُعرِضًا عن الكون بأسره، واستمع إليه "كانط" وأعرض عن كلّ ما كُتب عن الخالق، فعلى الإنسان أن يستمع للروح ويُصغي إلى إلهاماتها، وينشئ مختبرات لفهم لغة الوجدان؛ ويتحرّى ملامح الحقيقة في فهرست ينعكس في الشعور، هذا الكتاب هو الشاهد على الحقيقة العظمى، وهو أسلم الشواهد من الخطأ، وهو الذي وقّع العقد؛ أمّا مَن حيل بينهم وبين السعي وراء معرفة مثل هذه اللغة فليس يسيرًا شرح هذا لهم.

ولو أن العقول برئت من أحكامها الراسبة لَسمع الإنسان وجدانَه يقول للميثاق الأول "بلى". نعم، إن المقصد الرئيس من البحث والتفكر في الآفاق والأنفس هو: إنقاذ الذهن من هواجسه، وتحرير الفكر، والاجتهاد في قراءة كتابات الوجدان الدقيقة بعدسة الفكر الحر؛ نعم فهناك من عوّدوا أنفسهم على النظر في أعماق القلب بهذا الشكل، وليس ثمة كتاب يمكنهم أن يُلْفُوا فيه ما اكتسبوه بمشاهداتهم القلبية ولطائفهم المعنوية، بل إن إشارات الكتب الإلهية وإيماءاتها لا تنكشف بألوانها الخاصة إلا بهذه العدسة؛ أما من عجزوا عن أن يروا هذا الأفق أو أن يجتازوا حدود نفوسهم فلا قبل لهم بفهم أي شيء منها ألبتة.

والسؤال الثاني في هذه المسألة: متى أُخِذ عليهم ذلك العهد؟

بداية من العسير الاستدلال على هذا بحديث أو آية، ولبعض المفسرين في هذا أقوال يمكن عرض شيء منها:

قيل: وقع هذا والمني يُمنَى في الرحم، وقيل: عند تخلق الجنين بشرًا سويًّا، وقيل: عند بلوغ الطفل سن الرشد والتكليف... ولكل منهم وجهة نظر، ولكن يصعب ترجيح قولٍ على آخر.

وكما يحتمل أن يكون العهد أُخِذ عليهم في عالم الأرواح يحتمل أيضًا أنه كان في عالم آخر اجتمعت فيه الروح بالذرات، وكما يمكن أن يكون في إحدى مراحل الجنين يمكن أيضًا أن يكون في فترة ما إلى أن يبلغ الرشد... كل هذا محتمل، فإن الله سبحانه يخاطب الماضي مع الحاضر ويسمع ما في الماضي مع ما في الحاضر بلا زمن، ونحن ما زلنا نسمع هذا النداء الذي ينبعث من أعماق ضمائرنا، ونستشعر شهادة قلوبنا على هذا العهد.

نعم، إن للمعدة لسانًا خاصًّا تعبّر به عن الجوع، وللجسم عبارات خاصة يترجم بها عن آلامه ومعاناته، وكذلك للضمير لغته الخاصة، فهو يذكّر بالعهود ملتزمًا بمصطلحاته، ويئنّ لما ينزل به من غموم وهموم، ويجتهد ليفي بوعدٍ قطعه على نفسه، ويمضي في انفعالاته بجيشان لا يفتر؛ ويرى أنَّه سعيد محظوظ عندما تجلب أنّاتُه الأنظارَ إليه كما الطفل يفعل، ويتلوى في انكسار على الدوام إذا لم يستطع أن يعبر عن حاله ولم يجد سلوى لآلامه.

إن القلب هو مرآة صقيل تتجلى فيها الحقيقة العظمى، فما أثراه من مكتبة! وما أعظمه من سجلّ! وما أسماه من حافظة! لكن لمن يفهم لغته فحسب...

الشبهة والريبة

سؤال: ما هي الشبهة والريبة؟ وهل هي أمر مخيف حتى يقلق منه بعض الناس؟

الجواب: الشبهة مرض مخيف يدمّر الإنسان دون أن يشعر، ويفضي به إلى التهلكة على تؤدة؛ فإذا ما وقع الإنسان بعقيدته وفكره وتصوراته فريسة لهذا المرض فذلك يعني أن جميع وظائفه الحياتية وملكاته الروحية قاطبة قد مُنيت بالشلل.

ويمكننا أن نقسم الشبهة والريبة إلى قسمين:

١- الشبهة الإرادية، وأطلق عليها القدماء الريبيّة والحسبانية.

٢- الشبهة الناجمة عن اختلال التوازن في الإدراك الداخلي والمشاهدة الخارجية، والانحرافِ في النية والنظر والعجزِ عن تحليل المعلومات.

القسم الثاني من الشبهة قُتِل بحثًا، وأرى أن إزالتها ممكنة، أما الأول فمرض وجنون وانحراف في طبع الإنسان؛ يقول "سبينوزا" لمثل هؤلاء الريبيين: "واجب الريبي الحقيقي هو الصمت والعزلة"؛ فيا ليتهم أنصتوا لهذه النصيحة، ليقتصر أذاهم على أنفسهم ولا يؤذوا الآخرين.

نعم، هناك شبهة مؤقتة تقتضيها البحوث العلمية، وهذا النوع لا يعترض عليه أحد؛ أما الشبهة المرض فهي "المستعصية على الحل أو التي لا سبيل إلى حلها"، كما يقول الدكتور "باول سولبير (*Paul Sollier*)".

وهذا النوع من الشبهة يسيطر على شعورنا باستمرار، ويصيب بالشلل أحوالنا الروحية وفعالياتنا الذهنية كلها. والروح الإنسانية التي آلت إلى تلك الحال غدت مركزًا للتردد والتذبذب الفكري، فأشبهت تلك الطرقَ المعقدة تتقاطع فيها الشبهات عند نقاط معينة، ولا سبيل إلى الخروج منها.

من لم يستطع أن يتخلص من شبهاته ولم يتغلّب عليها، فلا مناص له من العجز البدني والتشوش والانحراف الذهني والسلوكي.

وتفضي الشبهة إلى سلوك فظّ وروح ضيقة خرقاء، فالمرتابون تتملكهم رغبة دائمة في التهرّب من الأعمال البدنية، فيُظهرون حنقهم وكرههم لما يؤدي إلى التعب.

ومهما بلغت قوة تشخيص أطباء علم النفس لهؤلاء الذين ينتابهم التعب والنصب دون القيام بأي عمل فليس بوسعنا أن ننكر تأثير القصور الداخلي عليهم.

وللشبهة تأثير على الذهن، فمن ابتُلِيَ بهذا المرض لا يمكنه القيام بعمل ذهني جادّ دائم؛ ومن اختل عقله بموجات الشبهة مدة طويلة يصعب جدًّا أن يفكِّر بتوازنٍ واعتدال؛ وأبرز ما يعتري هؤلاء حالاتٌ مثل ضعف التركيز وفتور الذهن وضمور الذاكرة، ثم يستحيل كل شيء عندهم إلى أمور مستحيلة، وتنتصب أمامهم قمم من "المُحالات" لا سبيل إلى تجاوزها، فليس أمام هؤلاء إلا باب واحد وسبيل واحد يمكن السير فيه، وهو نقد الآخرين.

والشبهة تقمع الأخلاق، وهذا أخطر ما فيها؛ فما تَعرَّضت له الرغباتُ والطموحات التي هي أعمق عنصر للشخصية مِن تموجات متناقضة واهتزازات يشكِّل في أخلاق المرتابين نفس النتائج التي يشكلها في أذهانهم.

وتظهر علامات الجفوة والعزلة على مَن أصيبوا بتشوش في أذهانهم وتعرضوا للضيق والفشل في حياتهم العملية، ورغم أن مثل هؤلاء يرغبون بالمتعة والفرح والمرح إلا أنهم يتهربون من الناس جميعًا ويحبذون العزلة؛ لذا لا منجى لهم من الهم والحزن؛ وهم محرومون من الفكر الحر، ومناعتهم المعنوية تكاد تكون معدومة.

وبخاصة مَن قطع مسافة كبيرة في الارتياب تسيطر عليه أحيانًا القسوة والجمود والخمول حتى إنه لا يتأثر بأي شيء، وأحيانًا أخرى تخرجه شخصيته المعنوية المنهارة عن كونه فردًا من المجتمع.

الشبهة مرضٌ آثاره الاجتماعية خطيرة جدًّا، فَمَنْ يَرتَبْ من بيئته ومما يجري حوله يرمِ بنفسه في دوامة آلاف من أنواع القلق، وهذا مبعث أذًى له وإزعاج لبيئته. ومِن أخطر ما يقع فيه المبتلَون بالتردد والشبهات ويفضي أحيانًا إلى هلاك قوم كليًّا إصرارُهم على اعتزال وظيفتهم أو تراخيهم عن القيام بمهمتهم في أوانها في موضع يستدعي قيامهم بها خوفًا من تحمل المسؤولية؛ خاصةً أنَّ وقوع قادة المهامّ المهمة وقادة السياسة والحروب في التردُّد والشبهات كفيلٌ بهزيمة الجيوش أو الشعوب وزيادة.

نعم، لا يُتوقع من المرتابين أن يكونوا مستَندًا لغيرهم؛ لأن الذين وقعوا في الخطأ مرة أو أكثر جراء اتباعهم لمرتابٍ سيقابِلون حتى أشدَّ تصرفاته معقوليةً وبراءةً بكل شكٍّ وارتياب؛ لعدم علمهم بكيفية ما سيصدر عنه.

ومع هذا فرغم أن معظم المرتابين يميلون إلى الركون والخمول، فما يضطلع به قلّة منهم من حماس وسعي للتقدم لا يستهان به.

إذًا كلٌّ من أفكار هؤلاء وتصرفاتهم يفتقر إلى التوازن والاعتدال؛ ومنهم من تركوا مناصبهم وأعمالهم ووظائفهم خوفًا من تحمل

المسـؤولية، ومثل هؤلاء يمكن أن يتسـببوا -والعياذ بـالله- في أن تصاب أمة أو دولة بالشلل في فترة حرجة؛ وكما أن إقدام هؤلاء مغامرة ومجازفة فكذلك حذرهم الناجم عن شكوكهم وأوهامهم خمولٌ وجمود؛ وقد يبدو أن ضعـف الإرادة وراء هـذا الحـال، لكـن الأمر ليس هكـذا ألبتة، بل إن عدم إصدار قرار صائب سريع والعجزَ عن ترجيح أحد الحلول المتنوعة التي قدَّمتْها لنا ظروفُ الحياة العامة وحوادثُها هما وراء هذا الحال.

والمرتـاب لا يوثـق به لتردده وعجزه عن الترجيـح، وهو أخطر على المجتمـع مـن المقدام غير المتّـزن؛ نعم، توجيه ذلك المقدام أمر شـاق، لكنه على الأقل يعمل ويتحرك؛ أما المرتاب فلا يوثق بحركته ولا بسكونه نظرًا لغرابة تصرفاته إجمالًا، حيث تبدو حركته سكونًا، وسكونُه حركة.

خاصّة إنْ عَدّ ذلك المرتاب التهوّرَ في إقدامه شجاعةً، وتردُّدَه وجبنَه حيطـةً وحـذرًا، فحالتـه النفسـية المَرَضية تلـك تجعله كارثة يدمر نفسـه ومن معه.

وكـم من القادة والإداريـين فرّوا من الجبهة في سـاعة الصفر فأحلّوا قومهـم دار البوار بريبهم وشـبههم؛ فليتهم هلكـوا وحدهم بالثغرات التي فتحوهـا! لكن وا أسـفاه كم نجم عـن هؤلاء المرتابيـن البلهاء من كارثة عظيمة وقعت على رؤوس من معهم.

مـن المرتابيـن المعاصرين مـن يعرّفون بأنفسـهم علانيـة، ويظهرون كفرهم جهارًا، ومنهم جبناء يسترون ما في بواطنهم، فتقـع كوارث فظيعة:

"أنا من يساوره الشكُّ في كلِّ شيء

سل من تشاء فجوابه لكَ: "لا علم لي عمّا تسأل"

من يدري فلعل كلَّ شيء وهمٌ يُغرِي

وربما صار الخداع من مقتضى حياة البشرِ

ومن يدري فلعله جميعًا حقّ يَسري

ولا علم لي بزيفٍ ألمّ بمشاعري

ليتني أرى المعدوم موجودًا والموجود معدومًا بلا ذِكْرِ

الشبهة جُرمي، وما عليّ في ذاك من ضيرِ

من يدري فلعل التراب أصلنا في الغابرِ

وإذا به يغدو حمأً مضطرمًا كالجمر

فأي صدفة غادرةٍ قامت بهذا الأمرِ

وأنى لخالق أن يرتكب جرمًا بهذا القدر

فالخالق بالمحيي المميت يُعرف لا بالمدمِّر"(١٣)

يا لَـ"فِكرت" المسكين! لو عرف أن كفره مع ما فيه من التطرف لم يبلغ مبلغ الريبيين اليوم فلربما أحزنه ذلك وأغضبه!. ورغم هذا كأنه وقع له "تناسُخ"، وحلَّ أجسادَ الريبيّين اليوم، وعاش في أبدانهم بأفكاره المتشائمة المتطايرة المرتابة!

وليس تفنيد ونقد أنواع الريبية وأدلتها موضوعنا، فنحيلكم في ذلك إلى كتب الفلسفة؛ ونؤكد على مسألة مهمة هنا، وهي أننا بحاجة في مستهل كلِّ محاولة إلى إيمانٍ لا يدع مجالًا لاحتمالٍ آخر، وإلى إرادة تنبع من هذا الإيمان، وإلى عزم لا ينطفئ؛ إذ التردد والريبة في واحد منها يفضي إلى ضعف تأثير تأثر الآخرين بل إلى انعدامه منهما.

والإيمان الجازم بالآخرة هو أول شرط وأهم عنصر في تكامل الفرد والمجتمع، واتباع الطريق الذي يقتضيه هذا الإيمان هو أرشد سبيل وأهم

(١٣) من شعر الشاعر التركي "توفيق فِكْرَتْ".

سـلوك؛ فانحراف الإنســان في قناعاته وتصوراته وسلوكياته كارثةٌ وباعثٌ على الفشل.

ورغم هذا فينبغي للشاكّ المرتاب الوقوف عند هذه الأمور:

١- لا بد لأمثال هذا أن يتوجهوا أو يُوجَّهوا إلى أهل المعرفة والخبرة، ليظهر ما إذا كانت شبهتُه مرضًا أم لا، وليُعرَف مداها وقضاياها العالقة بها، هذا ييسر العلاج ويزيل الشبهة.

٢- لا بـد مـن التركيـز علـى الشـبهة وحشـد المعلومـات الغفيـرة التـي تدحضهـا في مجالهـا، إذا كانت في مجال الإيمـان ففيه، وإذا كانت فـي مجـال العبـادات ففيـه، وإذا كانت في مجـال منهجنا الفكـري ففيه.. ويجـب سـوق الأدلـة التـي تفنّـد كلًّا منهـا مـع ملاحظـة العوامـل التي أدّت إليها.

٣- لا بـد مـن تهيئـة المجـال للقاء هـؤلاء المرتابين باسـتمرار بأهل المعرفة ممن اسـتنارت عقولهم وأفكارهم ويتمتعون بحياة قلبية وروحية، ليستفيدوا من أحاديثهم المنعشة.

٤- ومـن المفيد للمرتابين أيضًا مجردُ رؤيتهم الأحوالَ العامة لهؤلاء الذين رسخ إيمانهم واستقامت أفكارهم، فربما تكون رؤية هؤلاء المرضى لهـؤلاء المؤمنيـن الذيـن يـدورون في فلك الإيمـان والعبادة والإحسـان أجدى وأكثر تأثيرًا من آلاف النصائح.

٥- ولا بـد أن نطـوّف بالمرتابيـن فـي أطلس ماضينا الثـريّ اللامـع؛ فـإذا عرّفنـاه بالوجه الناصـع من تاريخنا وعرفناه بسـيرة نبينا ﷺ، فلنصرفه مـا أمكـن عن النقاط المظلمة الأنانية ونوجهه إلـى ماضينا المجيد الزاخر بالنجـوم. ويلاحـظ كثيـرًا علـى عـدد ممـن تعرفوا علـى الوجـه الناصع

من تاريخنا، وشعروا بروحه القوية من خلال ما ذكرناه آنفًا أنهم استبرؤوا من الأفكار الملوثة التي كانت تجثم على أرواحهم، وبدأت قلوبهم تتجدد وتنتعش.

٦- وإذا غدت الشبهة مرضًا، وأصبح لديها قابليةٌ للانتشار، فلا بد من عزل هذا المريض وعرضه على الطبيب، للحيلولة دون انتشار هذيانه داخل المجتمع.

آجال من يموتون في كارثة واحدة

سؤال: أَتَأْتِي آجالُ من يموتون في كارثة كونيَّة واحدة معًا؟

الجواب: الأجل: الوقت الذي كتب الله في الأزل انتهاء الحياة ومسيرتها فيه وفقًا لظروف كل مخلوق وأحوالِه، فما من مخلوق في هذه الدنيا إلا وقد كُتِب أجله ويوم منيته من قبل أن يُولَد.

ومسار الأحداث ومجراها يتعذر معه وضع حدٍّ يفصل البداية عن النهاية، فقدَر كل موجود أشبه بقطرة ماء، مصيرها إلى الأرض عاجلًا أم آجلًا، ثم إلى التربة لتنفذ منها كما النهر إلى بحر من البحار إن عاجلًا أم آجلًا، فقدَر كلّ موجود كما أتى به إلى مسرح العالم سيأتي عليه ليعود كما جاء.

البدايات أمارات النهايات، والحدوث دليل الفناء، ومن لا بداية له لا نهاية له، ومَن ثبت قِدمُه استحال عدمُه.

إن موجودًا عليًّا قديرًا يحكم بوجود كل حادث، ويرسله إلى هذا العالم برسالة، وهو عليه رقيب... فهو خارج عن الحوادث ومجرياتها وتلك البدايات والنهايات جميعها، والأزمنة السابقة واللاحقة والعصور والعهود كلها تحت قَهْرِه وتدبيره.

فمن الخطأ إطلاق لفظ "الطبيعي" على بثِّ هذه المخلوقات وظهورِها ثم رحيلِها واختفائها من مسرح الحياة، وكذا إطلاقه على الآفات وآثارها ومجرياتها؛ وما من شيء يظهر من العدم إلى الوجود من تلقاء نفسه بل إنما يكون ذلك بأمر رباني وإرادة ربانية لأداء رسالةٍ ما.

وما من موجودٍ يظهر إلى الوجود إنسانًا كان أم حيوانًا أم نباتًا أم غير ذلك إلا بقدرةٍ تصرّفه وتهيمن عليه، ثم يختفي هذا الموجود من مسرح الوجود ويتركه لمن بعده إذا ما أدَّى رسالته في عرض صفات خالقه وإشهارها للدلالة عليه.

والحياة والموت في الدنيا ابتلاء وعرض وظهور؛ ووجودُ أيِّ شيءٍ بعد أنْ كان عَدَمًا دليلٌ جليّ وترجمان فصيح على وجود خالقٍ لا تدركه الأبصار؛ وفناءُ ذلك الشيء بانقضاء أجله دليلٌ أيضًا بيّنٌ على أنّ ذلك الخالق الأزلي باقٍ لا يفنى.

أجل، إننا بوجودنا بعد أنْ كنا عَدَمًا دليلٌ على وجود مَن أوجدنا، كما أننا بسمعنا وبصرنا وحواسّنا وعلمنا لَدليل على وجودِ سميع بصيرٍ عليم، وعندما نموت على باقٍ لا يموت ولا يفنى، والخلقُ كلهم يأتي واحدًا تلو آخر ويرحل واحدًا تلو آخر ولا يعود مَن رحل. وهو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سُورَةُ الْمُلْكِ: ٦٧/٢). وما ينبغي للإنسان أن يهتمّ به هو فقهُ معنى الوجود، والفوز في الامتحان في الدنيا، والتهيُّؤ للرحيل.

وبعد هذا المدخل فلنتناول السؤالَ "أتأتي آجالُ من يموتون في كارثة كونيَّة واحدة معًا؟"

أجل، تأتي آجالهم جميعًا مرة واحدة، ولِمَ لا ومالكُ الملك بيده مقاليد كل شيء؟ فهو كما أنشأ وخلقَ كلّ شيء من الذّرات إلى المجرات في طرفة عين، يميت كلّ شيء في لمح البصر، ولا يحول بل يستحيل أن يحول دون هذا اختلافُ مكان هذه الأشياءِ واختلافُ صفاتِها وكيفياتِها.

ولا شيء ألبتةَ يشبه إرادة المهيمن العزيز الجبار المطلقة وإحاطة قدرته بكل شيء، أما الأشياء التي تقرِّب معناهما وكأنها مرآة عاكسة فما

أكثرَها، منها مثلًا: الشمس تتوجه نحوها أنواعٌ من الموجودات مختلفة الصفات، فتمدها الشمس بالحياة دون أدنى مزاحمة، وتصبغها أشعتها بشتى الألوان، ثم تذبل شيئًا فشيئًا وتنطفئ وتغادر مسرح الحياة بمر الأيام؛ ومثل هذا كلّ ما يُلقَّح في رحم الربيع، ثم ينمو في الصيف، ثم يصفرّ في الخريف، والفرق أنّ لكلٍّ منها قَدَرًا يختلف عن الآخر، وأنّ كلًّا منها يجري بعلم وإرادة وتدبير إلهيّ شامل لا بمشيئة نفسه وهواه ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/٥٩).

فهل يُعقل أن تُدَبَّر حياة الأشجار والأعشاب والبذور ونموّها ثم موتها بعنايةٍ وإحكام، ويُترك سدًى ذاك الذي كرمه الله تعالى وجعله أشرف خلقه؟ لا ريب أنّ خالق الكون ومالكه -الذي لا يشغله شيء عن شيء ولا يشغله سماع شيء عن سماع شيء آخر، ولا رؤيةُ شيء عن رؤية شيء آخر- سيُحكِم تدبير أمر الإنسان أكرمِ المخلوقات وأشرفها أيما إحكام، وسيُنعم على كل فرد منه بما أنعم به على الجنس أو النوع مما دونه من المخلوقات؛ وسيخصّ بذلك الإنسانَ فهرسَ الكائنات، ويكرمه، ويشرّفه بدعوة خاصة إلى حضرته.

قد يُدعى المرء للقاء الله وهو على فراشه أو هو في ساحة القتال أو إِثر آفة ومصيبة؛ وقد يُدعى الناس في أماكن مختلفة جماعات أو فرادى، ولا أثر لهذا الأمر على تدبير الخالق لأمر الإنسان؛ نعم، لمالك الملك والقدرة المطلقة مَن بيده مقاليدُ كلّ حيّ وكَتْبُ الآجال أن يتوفى الأنفس -كما كتب عنده- جماعاتٍ أو فرادى معًا؛ وهذا كتسريح وحدة عسكرية سبق أن تعين وقت تسريحها، فإذا جاء أوان التسريح قام أكبر قائد بالتنفيذ.

وسبق في بحث الملائكة الموكلة بقبض الأرواح أنَّ وظيفتها شاملة وعددها كبير، حتى إنه قد يوكَّل عدد منهم لا واحد فحسب بكل من أتاه أجله في الآفات والحروب، وهم إنما يَصدرون في هذا عن مشيئة الله وتقديره، وبأيديهم كتبٌ تهديهم إلى كل من جاء أجله.

وسبرُ هذه الآفات بعمق يكشف أن ما حدث كان مؤقتًا بقدَر أزليّ معلومٍ جَاءَ أجلُ القتلى على وَفْقِهِ، وتدوينُ عجائب هذه الحوادث لا تتسعٍ له مجلدات، بل ما كُتب منها بلغ مجلدات عدة، فما من يومٍ إلا ونقرأ في المطبوعات عن مثل هذه الحوادث المذهلة؛ فمثلًا:

• إذا زلزلت مدينة زلزالًا شديدًا فصار عاليها سافلها ومات الآلاف، قد نرى أطفالًا لا حول لهم ولا قوة لم يمسسهم سوء رغم مرور أيام على الزلزال وهم تحت الأنقاض كأنهم في استراحة...

• وإذا سقطت شاحنة في قناة فغرق العمال جميعًا قد تجد طفلًا رضيعًا في قُماطٍ يطفو فوق الماء...

• وإذا سقطت طائرة واحترق جميع ركابها ولم ينجُ منهم أحدٌ أيًّا كان، قد ترى على بعد مائتي متر رضيعًا ألقته الطائرة لما اصطدمت بالأرض، لكنه نجا ولم يصبه أي ضرر...

إن مئات الحوادث لتبرهن أن الحياة والموت بمشيئة الواحد الأحد وإرادته، لا يقع شيء منهما بنفسه أو صدفة.

والموجودات إنما خُلقت -فرادى وجماعات- لوظيفة مكتوبة في سجل كلٍّ منها؛ وتلك الوظيفة هي أن تفقه أسرار الفطرةِ الدقيقة ولما وراء الطبيعة من أسرار، وأن تكون ترجمانًا ومرآة تتجلى فيها آثار أسماء مَن خلقها وأسكنها هذه الدار، ثم ينقضي أجل كلٍّ بتمامِ وظيفتِه، فيغادرونها فرادى أو جماعات.

هذا العِلم والتقدير والقضاء، أي القضاء بآجال الناس معًا يسير على من يحيط علمه بكل شيء من أوله إلى منتهاه، وقد علّمَنا العليمُ المحيط بكل شيء أنه يحيط بكل إنسان كثيرٌ من الملائكة، وأن لقبض الأرواح ملائكة كثيرين أيضًا.

قد يقال: في النكبات والآفات يموت ويهلك مع من حقَّ عليهم العذاب كثيرٌ من الأبرياء، فماذا عن هؤلاء؟

إنّ سؤالًا كهذا مصدره خطأ وفساد في العقيدة والتصور؛ فلو أنّ الحياة هي هذه الدنيا فحسب، أو لو أن هذه الدنيا هي الدار الأولى والآخرة لربما كان لهذا الاعتراض وجه؛ أَمَا وإنها ليست إلا مَزْرعةً وساحة جهاد ومحطة انتظار، والآخرةُ دارُ حصاد وجنيُ ثمار وشروقُ سعادةٍ وغروبُ شقاءٍ ليس إلّا؛ إذًا لا عجب في موت الصالح مع الطالح، والبريء مع المجرم؛ بل إن جريان الأمور على هذا السنن هو الأصل والمنطق؛ لأن الإنسان عندما يُبعَث ينشأ خلقًا آخر أشبه بأعماله ونياته، وهذا أصل في الحساب، ثم إمّا أن يُعذَّب وإما أن يكون أهلًا للرِّضا والألطاف.

إذًا الأجل أو الموت: الوقت الذي تنتهي فيه الوظيفة في هذه الدنيا، وهذا الوقت قدَرٌ مكتوب في الأزل كأنه خطة مرسومة سابقًا ومدوَّنة في السجل تدوينًا لا ينافي الإرادة الإنسانية؛ ولا فرق ألبتة في تنفيذ هذه الخطة على الخلق أفرادًا كانوا أم جماعات؛ فإذا آن الأوان نفذ أمرُ مَن يرى ويعلم كلّ شيءٍ وفق مشيئته وإرادته سبحانه.

ومن أهم أسباب الانحراف في كثير من المسائل الجهلُ بالعلم والإرادة المطلقة للخالق ﷻ، والخطأُ في رؤية الحوادث والأشياء، فما لم تبرأ عقولنا وتطهر قلوبنا عند مواجهة الأشياء والأحداث من المفاهيم الخاطئة في الطبيعة والصدفة، فستغدو عقولنا وقلوبنا مستنقعًا آسنًا للعقائد الفاسدة وساحةَ حرب للوساوس الشيطانية.

ليس عجبًا أمرُ فسادِ الأجيال وانحرافها، بل المدهش أن تحافظ حتى الآن على استقامتها رغم جدب عالم القلب وسوء تغذيته وتوالي كؤوس الشبهات عليه صباح مساء، وتلك نكبة ومأساة كبيرة تقوم بها منظمات متخصصة.

وقد يُستعظم ما سقناه من أدلة على مسائل كهذه، فنقول: إنها من مسائل الإيمان، وأصغر مسألة إيمانية هي في نظرنا كالجبال الشمّ، وتربو قيمتها على هذه الدنيا بما فيها، فالعناية ببحث هذه المسائل مطابق لمقتضى الحال.

ويقيننا أن إخواننا الذين يقدرون هذه المسائل قدرها سيعذروننا ولن يسأموا منّا.

مـادة الأثـير

سؤال: هل وجود "الأثير" حقيقة؟ إن كان موجودًا فما هو؟

الجواب: وجود الأثير ليس قطعيًّا، ولكن ذكر بعض أهل العلم الأجلاء له ولو في التمثيل يدفعنا إلى الحديث عنه بحذر.

الأثير مادة لطيفة، تنفذ إلى كل مكان، تطرق إليها "هويكنز (*Huygens*)" في شك منذ عصور، ولما أكّد "مكسويل (*Maxwell*)" وجود الأثير اندثرت نظرية الفراغ المطلق، قال مكسويل: لما تم إثبات الظاهرة الكهرومغناطيسية كان لا بد من وجود وسط كالأثير؛ أي كل شيء من العالم الكبير (الكون) إلى العالم الصغير (الذرة) لا يخرج عن الأثير، والنتيجة الأولى لهذا الاكتشاف هي أن الموجات الضوئية ليست إلّا موجات كهرومغناطيسية، أي ظاهرة الضوء ليست إلا ظاهرة كهرومغناطيسية، وكان هذا الاكتشاف يعد خطوة أولى نحو توحيد الظواهر الطبيعية.

وسَبَقَ "فراداي (*Faraday*)" "مكسويل" بأن الشحنات الكهرومغناطيسية لا تستطيع الحركة والانتقال في الفراغ، وأنها بحاجة إلى وسط يحملها، وأفادت القوانين التي اكتشفها بأن هذه الشحنات مَوجات عرْضية لها نفس خواص الضوء من حيث الانعكاس والتكسر والتكسر المزدوج؛ وادعى "مكسويل" أن الضوء موجات كهرومغناطيسية قصيرة نوعًا ما؛ ثم جاء "هرتز (*Hertz*)" فأجرى تجارب كثيرة أيدت نظرية "مكسويل"؛ إذ لاحظ أن سريان تيار كهربائي في أي زاوية من الغرفة تنبعث منه شرارات كهربائية في الدورة الكهربائية بالزاوية الأخرى دون وجود

أي ارتباط بينهما، وأن سرعة هذه الموجات تساوي سرعة الضوء؛ فأُطلق اسم "هرتز" على هذه الموجات، وهذا أصل اكتشاف المذياع واللاسلكي والهاتف الذي بأيدينا.

سادت فكرة الأثير مدّة طويلة، ثم أراد "مورلي (*Morley*)" و"مايكلسون (*Michelson*)" التحقق من وجوده بالتجربة، فقالا: لدينا جهاز يمكنه فصل شعاع ضوئي آت من مصدر واحد، ثم يوجهه باتجاهين متعامدين على أن يكون أحدهما موازيًا لمحور دوران الأرض حول الشمس والآخر متعامدًا معه، وسنراقب ونشاهد ما ينعكس على المرايا من هذين الشعاعين، ويُفترَض أن أحد الشعاعين سيستفيد بقدر ما من حركة الأرض فيصير أسرع، أما الثاني فهو متعامد مع حركة الأرض، فيُفترَض أن سرعته لن تتغير، ولكن هذا الفرض لم يثبُتْ؛ إذ لم يسجل أي فرقٍ بين سرعة الشعاعين؛ ثم أعيدت التجربة والنتيجة هي هي، فكان هذا مؤشرًا سلبيًا على وجود الأثير، أي إنّ الموجات الصوتية لا تحتاج إلى وسط يحملها.

اعتُرِض على هذه النتيجة، فقال "لورنتز (*Lorentz*)": القاعدة أن الأطوال تقصر "في اتجاه الحركة"، وهذا ما حدث في تجربة "مورلي" و"مايكلسون"، وبرهن على وصول الشعاعين إلى المركز أو إلى عين المشاهد في اللحظة نفسها رياضيًا؛ وقد عُدّ هذا اعتراضًا وجيهًا آنذاك؛ ولكن من المهم معرفة ماهية ما يسعى "مايكلسون" لإثبات وجوده، وما هو "الأثير" الذي يقول "لورنتز" بوجوده.

فالأول قال بعدم وجوده استنادًا إلى تجربته، لأنه افترض أن الأثير مادة كثيفة، أو عدّه كالهواء المحيط بالكرة الأرضية، وتخيّل حركة هذه المادة السيالة المحيطة بالأرض مع حركة الأرض، أي أجرى تجربته في مثل هذا الأثير الخيالي؛ ألا يمكن أن يكون للأثير وجودٌ فوق المادة أي عالم

غير مشهود يقابل عالمنا المشهود هذا؟ هذا علمًا بأن كثيرًا من المجلات العلمية نَشرت وتنشر الآن مقالات كثيرة حول العودة إلى "الأثير".

إذًا رغم أن الأثير لم يُثبَت وجودُه حتى الآن بالمشاهدة أو بالتجربة، لكن من الخطأ الاستعجال بنفي وجوده؛ لأننا لا نملك معلومات قاطعة على النفي.

وإن كانت الدراسات الحديثة في الفيزياء ترمز إلى وجود الأثير لكننا على قناعة بأن مثل هذا النزاع سيظل سنين إلى أن يُتفق على المصطلحات الفنية.

وأخيرًا أذكّركم بقول الصادق المصدوق ﷺ: "**كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ**"(١٤)، ولندع الفيزيائيين ليُدلوا فيه بدلوهم في المستقبل.

---

(١٤) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ١١.

الفرق بين لفظ الجلالة "اللّه" وكلمة "إله"

سؤال: ما الفرق بين إطلاق كلمة "إله" وإطلاق لفظ الجلالة: "الله"؟

الجواب: إن كلمة "الإله" معناها في الأصل "المعبود"، وتُقابَل بكلمة "*God*" في الإنجليزية، وكلمة "*Tanrı*" في التركية وكلمة "*Dieu*" في الفرنسية، وكلمة "خُدا" في الفارسية؛ لكنها ليست ألبتة مرادفة لكلمة "الله" الجامعة لأسماء الله الحسنى كلها، فعند ذكر كلمة "الله" يسبق إلى الذهن الذات الأجلّ الأعلى الذي له جميع الأسماء الحسنى المتجلية في الكون، فهذا هو المعنى المفهوم لكلمة "الله"، أي هو وحده المعبود المطلق، الخالق المطلق، المُجيب المطلق، الرزاق المطلق، البارئ المطلق، الجميل المطلق... إلخ.

وهذا المعنى العامّ هو الذي يُفهم من لفظ "الله" الجامع المشتمل على أسماء الله الحسنى، فهو اسم خاصّ بالله جلَّ جلاله، فعندما يُذكر "الله" نفهم منه أن المقصود هو المعبود المطلق واجب الوجود؛ ولكن إذ ذكرت كلمة "إله" سبَق اسم "زيوس (*Zeus*)" إلى ذهن اليوناني القديم وعجل"آبيس (*Apis*)" إلى ذهن المصري القديم... إلخ؛ إذًا هنا يسبق إلى الأذهان آلهة معبودة بحق وبغير حق، أمَّا عند ذكر لفظ "الله" الاسم الخاصّ بالله تعالى فلا يسبق إلى الذهن سوى الذات الإلهية واجب الوجود من له الأسماء الحسنى، فإن استعمل أحدهم لفظ "إله" بدلًا من لفظ "الله" فقد أخطأ وخانه التعبير الصحيح عن قصده وغايته؛ نعم، يجوز استعمال لفظ "إله" مقابل "خُدا" أو "*Dieu*" أو "*God*" لا في مقابل لفظ "الله"؛

ولما كان لفظ الجلالة "الله" اسـمًا خاصًّا بالذات الإلهية قلنا في الشـهادة: لا إلـه إلا الله، ولـم نقـل "لا اَلله إلا الله"؛ فشـهادتنا نفـي لجميـع الآلهـة، ثم إثبات الألوهية لله تعالى المعبود المطلق وحده.